

جوانب من الحياة الاقتصادية والعلمية بمنطقة توات خلال القرن 11هـ/ 17م، من خلال رحلة السراج.

د، أحمد جعفري، مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا، جامعة أحمد دراية أدرار، تاريخ معاصر (الصحراء الجزائرية)

البريد الإلكتروني: djaafri1979@gmail.com

تاريخ النشر: 2022-01-15

تاريخ القبول: 2021-11-28

تاريخ الارسال: 2020-11-19

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز بعض من الجوانب الاقتصادية والعلمية والدور الحضاري لمنطقة توات بالجنوب الجزائري خلال القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، من خلال رحلة السراج بن مليح الحجية، من مراكش المغربية إلى مكة المكرمة عام (1040هـ/1630م) في مدة تسعة أشهر وسبعة أيام، قاطعا مسافة مائتين وثمانية مراحل (208) أو ما يعادل ثمانية آلاف وثلاثمائة وعشرون (8320) كلم، ذهابا وايابا، وهذا بمعدل أربعين كلم لكل مرحلة، خاصة وأن المنطقة كانت نقطة التقاء وعبور للقوافل التجارية والحجية القادمة من مختلف الحواضر الافريقية والعربية، وقد قدمت لنا الرحلة صورة واضحة عن طبيعة الحياة المعيشية للسكان، ووفرة وجودة الإنتاج الفلاحي، وكثرة المراعي والآبار، وحفاوة توديع واستقبال وفود الحجيج، وإلى المسافة بين توات وغيرها من الحواضر العربية والافريقية، والطرق والمسالك الرئيسة بين توات ومكة المكرمة، كما نقلت لنا الرحلة بعضاً من اهتمام ساكنة المنطقة بالعلم والعلماء، وأهم البلدان التي مر بها الركب كبلدة بني أركان بتسايت، والدغامشة وإيقسطن بتدككت.

الكلمات المفتاحية: توات، القوافل التجارية، الصحراء الجزائرية، القوافل الحجية، ابن مليح، السراج.

Abstract

Abstract- The aim of this study is to highlight some of the economic and scientific aspects and the civilizational role of the Touat region in southern Algeria during the eleventh century AH, through the pilgrimage trip of Ben Melih from Marrakesh, Morocco to Mecca in (1040 AH / 1630 CE) in a period of nine months and seven days. He crossed a distance of 8320 km, especially since the region was a meeting and a crossing point for commercial and pilgrimage caravans coming from various African and Arab towns. This trip provided us a clear picture of the living conditions of the inhabitants, the abundance and the quality of the agricultural production, pastures and wells, the hospitality of the pilgrims' delegations, and the distance between Touat and other Arab and African cities, and the main roads between Touat and Makkah. The trip also conveyed to us some of the interest of the region's inhabitants in science and scholars, one of the most important countries through which the passengers have passed, is the town of Bani Arkan in T'sabit, al-Daghamsheh and Iqastan in Tadakkat

Key words : Touat, commercial caravans, the Algerian desert, the authentic caravans, Ibn Mleih, Serraj

1- المقدمة تُعد منطقة توات إحدى المناطق الجنوبية الجزائرية التي شكلت منذ قرونٍ خلت حلقة وصل بين جهات الجزائر المختلفة، ونقطة التقاء القوافل التجارية والحجّية، ومعبراً مُهماً نحو البلدان والحواضر العربية والإفريقية، وهذا لموقعها الجغرافي الاستراتيجي في قلب الصحراء الجزائرية من جهة، ولما تملكه من إرث ثقافي وحضاري من جهة أخرى، ولهذا فقد كانت محل اهتمام الباحثين والرحالة الذين أسهبوا في وصفها والحديث عنها وعن تاريخها ونشأتها ومكانتها الاقتصادية والثقافية والحضارية، ومن بينهم الرحالة السراج الملقب بابن مليح صاحب رحلة أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب (1040هـ - 1630م) ولهذا نسعى من خلال هذه الورقة البحثية التطرق إلى إشكالية رئيسية تتمحور حول إبراز بعض من الجوانب الاقتصادية والعلمية لمنطقة توات ودورها الحضاري والتجاري خلال القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، والعوامل المساهمة في ذلك، من خلال رحلة السراج. وللإجابة على هذه الإشكالية نتبع العناصر التالية: توات لمحة جغرافية تاريخية- التعريف بالسراج مؤلف الرحلة- وصف رحلة السراج الحجّية من مراكش إلى مكة- الجوانب الاقتصادية في الرحلة- الجوانب العلمية في الرحلة- خاتمة. وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على بعض من الواقع العلمي والمعيشي والاقتصادي لمنطقة توات خلال القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، وإبراز مقوماتها الاقتصادية ومكانتها التجارية والعلمية.

2- توات لمحة جغرافية تاريخية

2-1 الموقع الجغرافي والفلكي.

تقع توات في الجنوب الغربي للصحراء الجزائرية، وتنقسم إلى ثلاثة مناطق كبرى، قورارة وهي التي تقع ناحية الشمال، وعاصمتها تيميمون، وتدكلت وهي التي تقع جنوبا وعاصمتها عين صالح، وتوات الأصل وهي التي تقع وسطا بين المنطقتين السابقتين، وقد اختلف الباحثون في رسم الحدود الجغرافية لها، فأحمد العماري يرى أنها تمتد من إقليم بيشار شمالا، إلى معدني الملح في تادوني وتغازا جنوبا، ومن تافيلالت وتندوف غربا، إلى منطقة الجريد شرقا.¹ أما "بلعالم مُجّد باي" فيرى أن المنطقة يحدها من الشمال واد الساورة والمنيعه، ومن الجنوب صحراء تنزروفت، وغربا عرق أركشاش، وشرقا أمقيد،² في حين إن الرحالة الفرنسي "دوماس" (Dumas) في رحلته نحو الصحراء، يرى أن توات واحة كبيرة جدا تتخللها هضاب رملية،

¹ أحمد العماري، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 - 1902م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جامعة سيدي محمد بن

عبد الله، المغرب، ط01، 1988م، ص 12.11

² مُجّد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، دار المعرفة الدولية للنشر

والتوزيع، الجزائر، ج01، ط خ، 2011م، ص59.

تنقسم إلى خمس مقاطعات كبرى وهي: تبلكوزة، قورارة، أوقروت، توات، تِدِكْلَتْ¹. أما فلكيا فتنحصر منطقة توات بين دائرتي عرض 26 و 30 شمالا وما بين خطي طول 4 غربا و 01 شرقا.²

2- 2 أصل التسمية

اختلف الباحثون والمؤرخون في أصل تسمية توات، فيرى "عبد الرحمن السعدي" في كتابه تاريخ السودان، أن سلطان مالي كنيان موسى، كان ذاهبا إلى الحج رفقة جماعة كبيرة من أهل بلده فلما وصلوا توات أصيب البعض منهم بمرض معروف عندهم باسم توات، فتركهم السلطان بما لتأخر شفائهم، فصاروا يسمونها بالمرض الذي أصيبوا به وهو توات.³

أما العالم مُحَمَّد بن عومر بن مُحَمَّد بن المبروك البدوي، فيرى في كتابه نقل الرواة عن من أبدع قصور توات، أن "السبب في تسمية هذا المنطقة بتوات أنه لما فتح عقبة بن نافع الفهري بلاد المغرب، ووصل ساحله، ثم عاد لواد نون ودرعة وسجلماسة، وصل خيله توات، ودخلها عام 62هـ - 681م، فسألهم عن هذه البلاد، وما يسمعون ويُفشي عنها من الضعف، هل تواتي لنفي المجرمين من عصاة المغرب؟ فأجابوه بأنها تواتي، فأطلق اللسان بذلك أنها تواتي، فتغير اللفظ على لسان العامة لضرب من التخفيف"⁴ في حين يعتقد "مُحَمَّد بن عبد الكريم بن عبد الحق بن البكري" في كتابه درة الأقلام، أن اسم توات مُشتق من الأنوات وهي المغارم التي كان الملوك والحكام يأخذونها منها، فصارت البلد تُعرف باسم أهل الأنوات، ثم صارت توات بعد حذف التعريف والمضاف،⁵ وهو الرأي الذي تُرجحه ويرجحه أغلب الباحثين.

3- 3 التعريف بالسراج:

هو أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن عبد العزيز بن مُحَمَّد القيسي، الشهير بالسراج الملقب بابن مليح، رحالة من مدينة مراكش المغربية، يُجهل تاريخ ميلاده ووفاته، اشتهر برحلته المسماة أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، قام برحلة من المغرب نحو الحجاز سنة 1040-1442هـ / -1630-1633م، في زمن "الوليد السعدي". عُرف بنزعه الصوفية وثقافته الإسلامية الواسعة، وكثرة حله وترحاله، وحبه الشديد للأولياء والصالحين.⁶

¹Eugene Daumas, **Le Sahara Algerian**, études géographiques, statistiques et histoires sur la région au sud des établissements François. Dubos frères. Rue Bab-Azoun, Alger, 1845, p42

² مُحَمَّد الصالح حوتية، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، ج 01، 2007، ص 28.

³ عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، اعتناء وتر: هوداس، باريس، فرنسا، 1964، ص 07.

⁴ مُحَمَّد بن عومر البدوي، نقل الرواة عن من أبدع قصور توات، مخطوط بجزنة سيدي حيدة بودة ولاية أدرار، ص 05.

⁵ مُحَمَّد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكراوي، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بجزنة أبناء بن عبد الكبير بالمطرفة ولاية أدرار، ص 07.

⁶ علي حفناوي، الرحلات الحجازية المغربية المغربية في الإعلام في البلد الحرام، دراسة نقدية توثيقية ثقافية، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، العربية السعودية، 2016 ص 137.

4- وصف رحلة السراج من مراكش إلى مكة.

بدأ السراج رحلته الحجية أواخر صفر 1040هـ/ الموافق ل 07 أكتوبر 1630م، من بلدة أغمات¹ التابعة لحاضرة مراكش المغربية بزيارة مقابر الأولياء والصالحين الذين تُعج بهم، قصد التبرك بأولياتها والاقتراب من نور ضيائها، ومن بينهم "أبو عبد الله سيدي مُحمَّد بن سعدون بن علي بن بلال القيرواني"، وقد أورد لكل واحد منهم ترجمة مختصرة، كما قام رفقة الوفد المرافق له وتحت قيادة أحد مشايخ التصوف يُدعى "سيدي مُحمَّد بن الحاج الأبر" نجل الولي الأكبر "سيدي عبد العزيز بن سيدي مُحمَّد بن سيدي أبي عمرو" بزيارة وداعٍ لمختلف الزوايا المنتشرة بربوع المنطقة، ثم انتقل الراكب إلى بلدة ورزازات² ومنها إلى درعة ثم إلى تابلالت، وبها التقى الراكب بأحد قواد السلطان يُسمى القائد "جوهر" الذي كلفه ملك المغرب بحمل هدية ثمينة للمسجد النبوي، وبعد قطع بلاد تابلالت ودخول أرض توات وصل الراكب إلى بني أركان³ والتقى بعامل السودان "الباشا علي بن عبد القادر الشرقي" ومعه ابن العلامة "أحمد بابا التنبكتي" و"سيدي أحمد بن مُحمَّد السوداني" و"سيدي مُحمَّد بن عبد العزيز الدرعي" من تلامذة الشيخ "أحمد بابا"، ومكث بها سبعة عشر (17) يوماً في هناء ورخاء، لينطلقوا منها نحو بلدي الدغامشة واقسطن بتدكلت، ومنها نحو صحراء الأزجر، فبلاد فزان الليبية، وبعد قطع العديد من البلدان، وصل الراكب إلى القاهرة، وبعد مراحل عديدة وصل إلى المدينة المنورة ومنها لمكة المشرفة التي دخلها يوم الجمعة السابع من ذي الحجة 1040هـ، الموافق ل 06 جوان 1631م، وبذلك يكونُ مدة سير الراكب من مراكش المغربية إلى مكة المكرمة حوالي تسعة أشهر وسبعة أيام⁴، أما مدة عَيبة السراج منذ أن خرج من مراكش في رحلته الحجية إلى أن عاد إليها سنتين ونصفاً وستة أيام، قاطعاً مسافة مائتين وثمانية مراحل (208) أو ما يعادل ثمانية آلاف وثلاثمائة وعشرون (8320) كلم⁵.

أما المخطوط الأصلي للرحلة فهو من القالب الرباعي بحجم 20 على 16، بخط واضح وعناوين ذهبية وتم تحقيقه من قبل الأستاذ "مُحمَّد الفاسي" الرئيس الشرفي لجامعة مُحمَّد الخامس بالرباط ووزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي عام 1388هـ- 1968م.

5- الجوانب الاقتصادية في الرحلة

تشير الرحلة إلى أن توات كانت خلال القرون الماضية نقطة التقاء وعبور للقوافل الحجية والتجارية والعلمية القادمة من مختلف الأقطار المغربية والافريقية، وخاصة بلاد السودان، مراكش، فاس.... ولقد ضمت الرحلة بين جنباتها عديد الاخبار

¹ تقع على بعد 30 كلم من مدينة مراكش..

² تقع على بعد 200 كلم جنوب شرق مراكش.

³ أحد بلدان تسانيت يقع حوالي 60 كلم شمال أدرار، ويسمى حالياً برينكان.

⁴ ابن مليح، القيسي أبو عبد الله مُحمَّد بن أحمد، أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى مُنتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، 1040-

1042هـ/1630-1633م، حققه وقدم له وعلق عليه: الفاسي مُحمَّد، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب، 1383هـ/1968.

⁵ بعلي حفناوي، المصدر السابق، ص، هـ.

الاقتصادية، وقدمت لنا صورة واضحة عن طبيعة الحياة المعيشية لسكان المنطقة، فبعدما قطع الركب المراكشي بلاد تابلالت التي تضم مدشرين صغيرين، ووصفها بأنها كثيرة المراعي الخصبة، ذات عيون جارية وحدائق مثمرة، دخل بلدة بني أركان وتسمى حالياً "برينكان" وهي أولى بلاد توات من ناحية الغرب، ووصفها بقوله: (بأنها بلد طيبة كثيرة الزرع والثمار المختلفة بالجنس والنوع، ذات عيون جارية وانهار، على مر الليالي والنهار، فأقام بها الركب سبعة عشر (17) يوماً في نعمة شاملة، وآلاء الله عليه متواصلة، وبيع وشراء وأخذ وعطاء، فيالها من بلدة، ما أحسنها، وجبر الله صدعها وأدام للمسلمين نفعها) وهذا ما يؤكد الازدهار التجاري والمكانة الاقتصادية للبلدة، وفي كلامه تأكيد لما ذهب إليه "العايشي" في رحلته الحجية 1059هـ- 1649م، وهي الفترة نفسها لرحلة السراج، حيث وصف توات بقوله: (ودخلنا إلى أول عمالة توات وهي قرى تسابيت، وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح "مُجد بن صالح" المعروف بعريان الراس تلميذ الولي الصالح المشهور "سيدي أبي الرواين" دفن مكناسة بمغربنا وأقمنا بها ستة أيام (06) وبعنا بما خيلنا وما ضعُفَ من إبلنا، واشترينا ما نحتاج إليه من التمر الموجود بها بأنواع كثيرة، وأثمان رخيصة، وهو غالب قوت أهلها العوام، الذين يشتغل جلهم بالتجارة، وبخارج البلد مرعى حسن للابل،... وعدد المتقال عندهم أربع وعشرون موزونة، وسبب إقامتنا في هذه البلاد هو أن كثيراً من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخروا الصرف إلى توات، فان الصرف فيها ارخص، وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر، وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تُنكبت، ومن بلاد أكديز من أطراف السودان، ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك الشيء الكثير....¹

وفي رحلة الاياب من المدينة المشرفة وصل الركب مصر يوم الجمعة 03 صفر 1042هـ - 19 أوت 1632م، ومنها لبلاد فزان الليبية التي مكث بها الركب سبعة عشر (17) يوماً وبعد قطع العديد من المراحل، والوصول لبلاد عين صالح لم يخف اعجابه من مظاهر الحفاوة والترحاب التي استقبل بها ركب الحجيج، وهي المظاهر التي لازالت باقية إلى يومنا هذا، سواء في توديع حجاج بيت الله الحرام أو استقبالهم، كما أشاد بالطبيعة الخلابة التي تحيط بها، يقول: «...فسرنا نقطعُ الفيافي والقفار، وندخلُ تلك المنازل والديار، إلى أن بلغنا وادي أرسم الليل، فانحرفنا عن الطريق الأولى وتركناها يمنةً لشدة حروشتها وجدبها وبعدها عن العمران، وسلكنا طريق تدكُلت أسفل بلاد توات، وهذه الطريق أقرب من الأولى وأسهل منها، فبلغنا بعد ثلاثة أيام مدشراً صغيراً يقال له "إن صالح" أُحدقت به عيونٌ ونخيلٌ كثيرةٌ، أهلها سادات صلحاء أفاضل تلقونا بالرحب والقبول، وبالميسور من الطعام، ثم منه خرجنا نطوي المراحل صحراً، عشرة أيام فبلغنا مدشراً يقال له "أفران" من مداشر بلاد توات، بتنا فيه ليلة واحدة، فارتحلنا منه، مرحلتين لبلاد الشيخ عافة ببني أركان، اقمنا فيه سبعة عشر يوماً»².

¹العايشي أبو سالم، الرحلة العياشية ماء الموائل، نج: مُجد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط، المغرب، ج 01، 1977، ص 79.

²ابن مليح، المصدر السابق، 1968 ص 133.

وبعد قطع العديد من المراحل غرب بني أركان لانتظار الرفيق لسلك الطريق لكونه مخوفاً وبالمكافرة مخوفاً. وصل الركب وادي درعة فمكث بها ثلاثة أيام للاستراحة، بداية من يوم 03 شوال 1042هـ/ الموافق ل 13 افريل 1633م، وقد وصفه بن مليح بأنه واد ذو ظل ظليل وماء سليل، رحب فناءؤه، متسع فضاءؤه، حسن المنظر، مياهه عذبة، ومراتعه خصبة.

ولعل ما يؤكد وصف السراج للمنطقة التواتية والخيرات الكثيرة التي كانت بها، هو قول ابن خلدون (ت 809هـ - 1406م) "وفواكه بلاد السودان كلها من أرض توات وتيكورارين ووارجلان".¹

وما يؤكد ذلك أيضاً، هو قول "بن بابا حيدة التمنيطي" (ت 1183هـ. 1769م) في كتابه "القول البسيط في أخبار تمنطيط" عن توات حين قال عنها: (اجتمع فيها العلم والإمارة والديانة والرياسة، وانتصبت بها الأسواق والصنائع والتجارات والبضائع، وكاد أن لا يستغني عنها غني ولا زاهد، لِمَا فيها من الدين والبركات، والمنافع والحاجات، فهي مورد الركبان، ومحشر العربان، ورؤيسة البلدان... يرُدُّ بها الظمآن، وترتوي بها التجار في الأوان، وهي مُتصلةُ البُنَيان في قصور غير متباعدة السيسان، بل هي متلاصقة العمران، وحولها حقول وبساتين، ماؤها فقاقر جارية، وقصورها ثلاثمائة وستة وستون (366) قصرًا، يُستضافُ فيها الضيف سنةً، كل يوم في قصر).²

-أشارت الرحلة إلى المسافة بين توات وغيرها من الحواضر الصحراوية، والجدير بالذكر أن مدة سير القوافل تختلف باختلاف عدد الرواحل وحمولتها وطريقها المتبع والظروف الأمنية والمناخية وما إلى ذلك، وانطلاقاً من هذا فإن معدل سير القافلة في كل مرحلة هو أربعين (40) كلم³، فمن تبلبالت إلى توات ثلاث عشرة مرحلة، أو ما يعادل (520 كلم)، ومن أول بلدة بتوات (بني أركان) إلى اخرها (اقسطن) خمس مراحل أو ما يعادل (200 كلم)، ومن آخر بلاد توات لبلاد فزان، ثلاث وخمسون (53) مرحلة أو ما يعادل (2120 كلم)، ومن فزان لوجلة سبع عشرة مرحلة، (680 كلم) من وجلة لسيوة اربع عشرة مرحلة، (560 كلم) ومن سيوة لبحر النيل ستة عشرة مرحلة، (640 كلم) ومن مصر لمكة المكرمة، خمسة وثلاثون مرحلة، (1575) كلم، ومنها للمدينة المشرفة إحدى عشر (11) مرحلة 440 كلم، ليصل مجموع المراحل من منطقة توات إلى مكة المكرمة (135) مرحلة، أو ما يعادل (5400 كلم) تقريباً.

-رسمت لنا الرحلة أهم المنازل والمناهل والعيون التي كان الحجاج يمرون بها في طريقهم نحو مكة المكرمة، وقد ظل الحجاج يعبرونها إلى غاية القرن العشرين، ولا تزال آثارها باقية الى يومنا هذا.

¹ عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، لبنان 1421هـ/2000. ص93.

² محمد الطيب بن عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق: فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977م ص33.

³Daumas Eugene, op cit, p300.

-دلتنا الرحلة على أن بلاد توات كانت ممرًا ومُستقرا هامين للقوافل التجارية والحجبية، ما يؤكد لنا الموقع الاستراتيجي لتوات التي تتوسط أغلب الحواضر الإفريقية والعربية فهي تقع وسطا بين الجزائر العاصمة وتنكبت.

- كانت أراضي توات خصبة مُنسطة، تتميز بوفرة الكأ والمراعي، وهي من الشروط الضرورية التي ينبغي توفرها قبل الانطلاق في أي رحلة، باعتباره الغذاء الرئيسي للرواحل، وغالبا ما تكون هذه المواطنُ مركزاً للراحة التي عادة ما تكون على ضفاف الأودية.

- توفر الأمن: أكدت الرحلة على توفر الأمن والأمان بالمنطقة خلال هذه الفترة، إذ لا يمكن عبور الطرق والمسالك غير الآمنة والمهددة للقوافل، وكان هذا العامل المؤثر الرئيسي على قوة الحركة الحجبية والتجارية.

- وفرة المياه: إذ أن الماء هو العنصر الأساسي للحياة، ولهذا فالقوافل التجارية أو الحجبية كانت تسلك طرقا بها آبارا عديدة.

- عدم وجود عوائق طبيعة ببلاد توات: كالتضاريس الصحراوية الصعبة التي يصعبُ السير بها واختراقها كصحراء العرق الغربي الكبير، وحماة قير وغيرها.¹

-دلت الرحلة على العلاقات والروابط التجارية المتينة بين بلاد توات والسودان الغربي، فكانت القوافل التجارية تأخذ من توات التمر- الغذاء الرئيس لسكان المنطقة- والقمح، وتجلب منها العبيد، وتبر الذهب والأغنام.

ولعل ما يؤكد هذه العلاقة ومكانة أسواق بلاد السودان الغربي هو ما أشار اليه "الاغواطي" في رحلته حين قال: وبعد توات تأتي عين صالح بالجنوب، ثم تأتي بلاد السودان أقصى الجنوب، حيث يترددُ التجار لشراء العبيد وتراب الذهب.² إضافة إلى المثل الشعبي الذي كان رائجا بالمنطقة الذي يقول: (الجرب دَوَاهِ القَطْرَانُ، والفقر دَوَاهِ السودان).

-أكدت الرحلة أن التمر كان الوجبة الرئيسة لغالبية السكان، وهو أول ما يُقدم للضيوف والزوار، وفي هذا السياق وصف الجغرافي "حسن الوزان" تسايبت بتوات عندما زار المنطقة عام 917هـ/1511م، بقوله: إنه إقليم مأهول في صحراء نوميديا على بعد نحو مائتين وخمسين ميلاً شرق سجلماسة، وألف ميل من الاطلس، سكانه فقراء جدا، لا تنبت أرضهم غير التمر وقليل من الشعير، بشرتهم سوداء، الا أن نساؤهم جميلات سمراوات.³

¹ الهادي المبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا جنوب للصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة: ط1، 1420هـ-1999م، ص 318.

² ابن الدين الاغواطي، تح: أبو القاسم سعد الله، مجموع رحلات، رحلة الاغواطي الحاج ابن الدين في شمال إفريقيا والسودان والدرعية، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، (ط.خ)، 2011، ص 94.

³ الحسن بن مُجَدِّد الوزان، وصف إفريقيا، تر: مُجَدِّد حجي ومُجَدِّد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، ط02، 1983، ص 133.

7- الجوانب العلمية في الرحلة:

كانت المنطقة نقطة التقاء العلماء الوافدين من شتى الأقطار، تقام بها حلقات العلم والفتوى، ففي بلدة بني أركان بتسايت، التقى الركب بالقائد "علي بن عبد القادر الشرقي" باشة السودان، والعالم الفقيه "سيدي مُجَّد بن الفقيه الأكبر"، والعالم "سيدي احمد بابا السوداني"، و"سيدي مُجَّد بن عبد العزيز الدرعي"، و"سيدي احمد بن مُجَّد السوداني"، وقد أثنى عليهم ومدحهم السراج ووصفهم بقوله: (إنهم ذو المناقب السنية والاحوال المرضية، ذو زهد وورع، وصيام وقيام ورأينا منهم السيادة ولزوم العبادة ما يضيق عن ذكره هذا التقييد).¹ وأنشد في حقهم شعرا يقول في مطلعته:

عبقتْ بنشرِ هَواهُم رِيحُ الصِّبا وإلى شداهُم كُلِّ قلبٍ قد صبا
قومٌ إذا نزلوا بوادٍ مُجْدِبٍ قفر تارُجٌ بالعبيرِ واعشبا
قومٌ لهم نبأ وحالٌ يُقتَضَى شرفُ الجلالِ إذا سُئلت عن النِّبا

إلى أن يقول:

هم أولياءُ اللهِ حقًّا في الوري ولهم يُقالُ غداً جهاراً مَرَحَباً.

وببلدة الدغامشة² التقى الركب بالولي الصالح سيدي علي بودربالة، مشهورُ البركة والصلاح والدين والورع والفلاح، رقيق الجسم أصفر اللون، عليه من مخائل العبادة والسياحة والزهادة ما لا يمكن أن يخفى على أحد ومن جملة ما رأينا من احواله انه يكرر كثيرا (هذا الدنيا للفنا)، وقد يصدق عليه قول الشاعر:

الله في الخلقِ أسرارٌ وأنوارٌ ويصنُظفي من يرتضي ويختارُ
لا تحقرنَّ فقيراً إن مررتَ به فقد يكونُ له حظٌ ومقدارُ.
بالنفسِ لا باللبسِ تعرفهُ قد يخلقُ الغمْدُ والهتْدُ بتارُ.
والتبرُّ في التربِّ قد تخفى مكانتُهُ حتى يخلصهُ بالسَّبْكِ مسارُ.

وهذا ما يؤكِّد لنا تقدير وتبجيل ساكنة المنطقة للعلماء والأولياء، وزيارتهم والتقرب منهم وطلب الدعاء بحضرتهم، واعتبار أضرحتهم من الأماكن المباركة، وهي من المظاهر التي لازالت موجودة إلى يومنا هذا.

¹ ابن مليح، المصدر السابق، ص 29.

² بلدة تقع حوالي (05 كلم) غرب عين صالح وبها: قبائل، أولاد الدغامشة، وأولاد بابا عيسى، وهي من الواحات التاريخية بتدكلت، باعتبارها مسرحاً لمعركة الدغامشة، ينظر: مُجَّد مرزاق، حمزة بن حاج علي، التراث الثقافي لمنطقة تدكلت، دراسة تاريخية أثرية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير اشراف: مُجَّد المصطفى فلاح، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2012/2011، ص 12.

ومن بلدة الدغامشة توجه الركب لبلدة إيقسطن،¹ وهو بلد منحرف عن الطريق الجادة وبه روضة المولى الصالح البركة سيدي محمد بن عمر، وروضة والده سيد عمر، وصحبنا من هناك ثلاثة من أولاده وصفهم بأنهم سادات أجلاء أخير صانهم الله.

8- خاتمة

من خلال ما سبق نستنتج ما يلي:
أن رحلة السراج أعطتنا صورة شاملة لواقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية لمنطقة توات خلال القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي.
تميزت المنطقة بالازدهار التجاري، وكانت نقطة التقاء وممر للقوافل التجارية والحجبية والعلمية القادمة من مختلف الحواضر الإفريقية والعربية مثل تُنكبِت، غدامس، فزان، قابس، مراكش، فاس، وغيرهم.
اهتمام ساكنة المنطقة وحرصهم البالغ في تأدية الركن الخامس، وحفاوة توديع واستقبال ضيوف الرحمن، وهذا على الرغم من العوائق والصعوبات الكثيرة التي كانت تحيط بالقوافل الحجبية.
دللتنا الرحلة على العلاقات والروابط المتينة التي كانت تربط بين توات وغيرها من الحواضر الإفريقية والعربية.
أشارت الرحلة الى المسافات الموجودة بين توات وغيرها من المناطق، فمن تلبالت إلى توات ثلاث عشرة مرحلة، ومن أول بلدة بتوات (بني أركان) إلى آخرها (إقسطن) خمس مراحل، ومن آخر بلاد توات إلى فزان، ثلاث وخمسون (53) مرحلة، ومن توات إلى مكة المكرمة (135) مرحلة.
أكدت الرحلة على توفر الأمن والأمان بالمنطقة خلال تلك الفترة، إذ لا يمكن عبور الطرق والمسالك غير الآمنة والمهددة لسير القوافل، وكان هذا العامل المؤثر الرئيسي على قوة الحركة الحجبية والتجارية.
رسمت لنا الرحلة أهم المنازل والمناهل والعيون التي كان الحجاج يمرون بها في طريقهم نحو مكة المكرمة، وقد ظل الحجاج يعبرونها إلى غاية القرن العشرين، ولا تزال أثارها باقية الى يومنا هذا.
كانت المنطقة نقطة التقاء العلماء الوافدين من شتى الأقطار، وخاصة من بلاد السودان والمغرب، وتقام بها حلقات للعلم والفتوى.

¹ تقع شرق عين صالح، يحدها من الشرق فقارة العرب، ومن الغرب الساهلة الغربية، ومن الشمال الفقيقية، ومن الجنوب عين صالح، التي تبعد عنها بأحد عشر (11) كلم، وهي من أقدم واحات تدكلت وأول مكان استقر به الإنسان في منطقة عين صالح، أسسها " عبد الله بن الشيخ بن أحمد بن عبد الرحمن " من مرابطي بلدة القرارة. ينظر: عبد القادر بويه، **تدكلت وثائق ومخطوطات**، المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة، الرغاية، الجزائر، 2015، ص 51.

ملحق: صورة صفحة من مخطوط الرحلة.

منه العزيا للبقا ويكررها المرات من غالب كلامه، وأكثر أحواله
رضى الله عنه وأرضاه، ومتعنا ببركاته ورضاه، ٥ شح ٥
له في الخلق أسرار وأقوال، ويصطفي من يرصده ويختار،
الآن في فبيها مررت به، فيكون له حضور مقدر،
والرب بالنعيم أيا للمرتين فيه، فيخلق العز والنعيم تارة،
والنعم بالنعيم، فترتبه كما تراه، حتى يخلصه بالسبب المسبب،
ورب أشعتك في كل يوم، له على العز والفسح أجرا،
شح أنتفتك ببلاد كسكس، وهو مرشع من عبي الطير والجماد،
فصرا في لرغيتهم بالمقوم، معنالي الحج، ودر روضه الولي أيضا لـ
البركة بسبب محرم من وروضه والاد، بسبب عروجه من عتاسي أو لاد،
ثلاثة سادات اجلا اخيلوا صلحهم من رحلة بعلي بن ابي طالب المدثر
ويبين مدشروا وكشروا، وأخرب بلاد قوات من تفلأ النيامه، أفمننا
به يوما للقيح لدخول لاصرا المعروفة بازكر النيو محسون يوما
بافانتمنا وضاعتنا، ولما ستتم ايام صرا، يا جسته عبرا، ييبا شح
مراحل ثم بعرا ولدي، بافلسا من كثير الأشهر والكاليسر فيهم
البيروا حتر، وحبيل الوبك، بيروا أخرا قنا يوم يوما الرعي الجمال
ثم سبع مراحل كماره، ٢ تروى بيها الالعيسر والغبارة، ثم في اليوم
الثامن عرفت لنا ثنيتة، ارتفعت في الجوع عاليته، اتخذت فانتنا
فرب العتله لعوينات، فابعات، مشعرات بعوينات الجمال
شح ثلاثة مراحل صرا، ثم في اليوم الرابع، واد بعبي جواد ارسم

صورة صفحة من مخطوط الرحلة

ابن مليح

المصدر: ابن مليح، المصدر السابق، ص، و.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- الاغواطي بن الدين، تح: أبو القاسم سعد الله، مجموع رحلات، رحلة الاغواطي بن الدين الحاج في شمال إفريقيا والسودان والدرعية، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، (ط.خ)، 2011.
- 2- الحسن بن مُجَّد الوزان، وصف إفريقيا، تر: مُجَّد حجي ومُجَّد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، ط02، 1983.
- 3- العماري أحمد، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850- إلى 1902م، (المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس جامعة سيدي مُجَّد بن عبد الله، المغرب، 1408هـ-1988.
- 4- الهادي المبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا جنوب الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط1، سنة 1420هـ-1999م.
- 5- السعدي عبد الرحمن، تاريخ السودان، اعتناء وتر، هوداس، باريس، 1964.
- 6- البداوي مُجَّد بن عومر، نقل الرواة عمن أبدع قصور توات، مخطوط بخزانة سيدي حيدة بودة ولاية أدرار.
- 7- البكراوي مُجَّد بن عبد الكريم، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الاسلام، مخطوط بخزانة أبناء بن عبد الكبير بالمطرفة ولاية أدرار.
- 8- بلعالم مُجَّد باي، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
- 9- بويه عبد القادر، تدكلت وثائق ومخطوطات، المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة، الرغاية، الجزائر 1، 2015.
- 10- بن حاج علي حمزة، التراث الثقافي لمنطقة تدكلت، دراسة تاريخية أثرية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير اشراف: مُجَّد المصطفى فلاح، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2011/2012.
- 11- حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغربية المغربية الأعلام في البلد الحرام، دراسة نقدية توثيقية ثقافية، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، العربية السعودية، 2016.
- 12- حوتية مُجَّد الصالح، توات والازواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري، الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، 2007.
- 13- ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، لبنان، 1421هـ/2000.
- 14- العياشي أبو سالم، الرحلة العياشية ماء الموائد، تحقيق: مُجَّد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977.
- 15- القيسي ابن مليح، أبو عبد الله مُجَّد بن أحمد، أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى مُنتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، 1040-1042هـ/1630-1633م، حققه وقدم له وعلق عليه: الفاسي مُجَّد، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب، 1383هـ/1968.
- 16- بن عبد الرحيم مُجَّد الطيب، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق: فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977 م.

17-Daumas Eugene, Le Sahara algérien, études géographiques, statistiques et historiques sur larégionau sud des établissements (français. Alger, Dubos frères. Rue .Bab-Azoun, 1845